بسم اللـه الرحمـن الرحيـم

الدرس : 06 - سورة الفرقان - تفسير الآيات 17 - 20

21-04-1989

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الفرقان.

الله سبحانه وتعالى يحشر خلقه جميعاً يوم القيامة ويسألهم أمام الملأ:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا(18)﴾

(سورة الفرقان)

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يجمع خلقه جميعاً في محشرٍ واحد، ويسألهم أمام الملأ، وفي هذا السؤال، وفي هذه المحاكمة فضيحةٌ وأيُّ فضيحة، قد تُسألُ سؤالاً في مجتمعٍ صغير فلا تملك الجواب الصحيح، فتشعر بالخجل، أما إذا جاء المذنب وسُئل أمام الأشهاد عن هذا الذنب فما موقفه يومَ القيامة ؟ فهؤلاء الذين عبدوا من دون الله، هؤلاء الذين قالوا: إن المسيح هو الله، أو هو ابن الله:

﴿ وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ (30) ﴾

(سورة التوبة)

الطاعة والمحبة لغير الله تعالى هي شرك ظاهر جليّ:

هؤلاء الذين اتخذوا الملائكة أرباباً مِن دون الله، هؤلاء الذين اتخذوا الجن، هؤلاء الذين عبدوا الأصنام، هؤلاء الذين عبدوا بعض البشر، أيْ أنَّ كل إنسانٍ يتوجه بالطاعة لغير الله، وبالمحبة، والولاء،

والإخلاص، والاعتماد، والتوكل على غير الله، هذا شركٌ ظاهرٌ جَلِيّ، فربنا سبحانه وتعالى يوم القيامة يجمع الخلائق كلها، ويوجّه إليهم السؤال التالي: يقول الله عزَّ وجل:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ (17) ﴾

(سورة الفرقان)

أيْ الناس جميعاً ؛ أسودهم، وأبيضهم، عربيهم، وأعجميهم، يحشرهم جميعاً:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ (17) ﴾

(سورة الفرقان)

فسيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، هناك أناسٌ عبدوه من دون الله، فهو يُسأل يوم القيامة:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ(116)مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117)إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118) ﴾

(سورة المائدة)

كل الأشياء التي عبدت من دون الله سوف تُسأل يوم القيامة:

إذاً هذا الذي عُبِدَ مِن دون الله سوف يُسأل، وهذا الذي عَبَدَ من دون الله سوف يُسأل، سوف يسأل مَن عُبِد ومَن عَبَد في الحشر أمام الملأ جميعاً وأمام الخلق كلهم:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي (17) ﴾

(سورة الفرقان)

يا أيها الذين عُبِدْتُم من دون الله سواءٌ أكانوا أنبياء مكرَّمين، ضل قومهم فعبدوهم مِن دون الله، سواءٌ أكانوا أشخاصاً عاديين، سواءٌ أكانوا ملائكة، أكانوا جِنّاً، سواءٌ عبدوا حجراً أم صنماً، كل الأشياء التي عبدت من دون الله سوف تُسأل هذا السؤال.

﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي (17) ﴾

(سورة الفرقان)

أصل الاستفهام هو طلب العلم بالمجهول ولكن في اللغة العربية له أغراض كثيرة:

بالمناسبة هذا السؤال في القرآن الكريم، السؤال يأتي على شكل استفهام في آياتٍ كثيرةٍ لا تُعَدُّ ولا تحصى، ولكن ما كل سؤالٍ يستفاد منه العِلم بالمجهول، أصل الاستفهام طلب العلم بالمجهول، كأن تقول لإنسان: كم الساعة الآن ؟ كم ثمن هذا الحذاء ؟ كم ثمن هذه البِزَّة ؟ إذاً أصل الاستفهام طلب العلم بالمجهول، لكنّ الاستفهام في اللغة العربية وفي علم البلاغة يخرج عن هذا الغرض الأساسي إلى أغراض كثيرة، وفي القرآن الكريم بيانٌ دقيقٌ لبعض هذه الأغراض.

1 ـ يقصد بالاستفهام الأمر:

فربنا سبحانه وتعالى يأمرنا أحياناً عن طريق الاستفهام فيقول الله عزَّ وجل:

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ(91) ﴾

(سورة المائدة)

أي ماذا تنتظرون بعد ؟ لِمَ لم تنتهوا حتى الآن ؟ انتهوا ؟ فهذا استفهام قُصِدَ به الأمر:

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ(91) ﴾

(سورة المائدة)

2 ـ يقصد بالاستفهام النهي:

أحياناً يأتي الاستفهام ويُقصد به النهي، يقول الله عزَّ وجل:

﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ(13) ﴾

(سورة التوبة)

أي لا تخشوهم، أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ استفهامٌ قُصِدَ به النهي أي لا تخشوهم.

3 ـ يقصد بالاستفهام التسوية:

أحياناً يقصد بالاستفهام التسوية لقول الله عزَّ وجل:

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(10) ﴾

(سورة يس)

أي يستوي إنذارهم وعدم إنذارهم:

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(10) ﴾

(سورة يس)

فعندنا استفهام يُقْصَدُ به الأمر، وعندنا استفهام يقصد به النهي، وعندنا استفهام يقصد به التسوية.

4 ـ يقصد بالاستفهام النفي:

أحياناً يقصد بالاستفهام النفيُ، لقول الله عزَّ وجل:

﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ(60) ﴾

(سورة الرحمن)

أيْ ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، هذا بند رابع في الاستفهام.

5 ـ يقصد بالاستفهام الإنكار:

أحياناً يأتي الاستفهام للإنكار، يسمى الاستفهام الإنكاري، كَقَوْلِ الله عزَّ وجل:

﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ(40) ﴾

(سورة الأنعام)

أيْ أَنَّ الله سبحانه وتعالى ينكر على هؤلاء أن يدعوا غير الله عزَّ وجل، الاستفهام الإنكاري كثير الاستعمال في القرآن الكريم.

6 ـ يقصد بالاستفهام التشويق:

كذلك عندنا استفهام تشويق:

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10) ﴾

(سورة الصف)

هذا استفهام يقصدُ به التشويق.

7 ـ يقصد بالاستفهام الإيناس:

عندنا استفهام يقصد به الإيناس:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(17) ﴾

(سورة طه)

ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يؤنسَهُ فسأله سؤالاً، وأنت أحياناً قد تحب أن تؤنس ضيفك تسأله سؤالاً لطيفاً، هذا السؤال تقصد به الإيناس وليس الاستفهام.

8 ـ يقصد بالاستفهام التقرير:

قد يأتي الاستفهام بمعنى التقرير:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1) ﴾

(سورة الشرح)

أي لقد شرحنا لك صدرك، أمرٌ، ونهيٌ، وتسويةٌ، ونفيٌ، وإنكارٌ، وتشويقٌ، وإيناسٌ، وتقريرٌ.

9 ـ يقصد بالاستفهام التهويل:

قد يأتي الاستفهام بمعنى التهويل:

﴿ الْحَاقَّةُ(1)مَا الْحَاقَّةُ(2)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ(3) ﴾

(سورة الحاقة)

هذا استفهامٌ يقصد به التهويل والتعظيم.

10 ـ يقصد بالاستفهام الاستبعاد:

هناك استفهامٌ يقصد به الاستبعاد:

﴿ أَنَّى لَهُمْ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(13) ﴾

(سورة الدخان)

أنى له أن يفهم، أي ما أبعدَهُ عن أن يفهم، هذا استفهامٌ يقصد به الاستبعاد.

11 ـ يقصد بالاستفهام التعظيم:

قد يأتي استفهامٌ يقصد به التعظيم:

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً(245) ﴾

(سورة البقرة)

وقال:

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ(255) ﴾

(سورة البقرة)

هذا استفهامٌ يقصد به التعظيم.

12 ـ يقصد بالاستفهام التعجب:

قد يأتي الاستفهام بمعنى التعجُّب:

﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7) ﴾

(سورة الفرقان)

وقد يأتي الاستفهام بمعانٍ كثيرة جداً ؛ كالتهكم، والوعيد، والاستنباط، والتنبيه، وغيرهم.

12 ـ يقصد بالاستفهام التوبيخ:

هذا الاستفهام استفهامٌ توبيخي، فهو توبيخ للكافرين الذين عبدوا غير الله:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي(17) ﴾

(سورة الفرقان)

من عبد شيئاً من دون الله سينطق عنه يوم القيامة:

هذا استفهامٌ توبيخي:

﴿ هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) ﴾

(سورة الفرقان)

يا تُرى أنتم كنتم السبب في ضلالهم أم هم الذي ضلوا في الأساس ؟ فقال هؤلاء الذين عُبِدوا من دون الله، أنبياء أو أصنام، كل شيءٍ ينطق يوم القيامة والدليل:

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ(21) ﴾

(سورة فصلت)

التسبيح في اللغة هو التنزيه والتمجيد وكلمة سبحانك فيها نفيٌ وإثبات:

أيُّ شيءٍ يوم القيامة ينطقُ بالحق، فحتَّى الحجارة التي عُبِدَت من دون الله تنطق يوم القيامة بالحق، فهذا السؤال عام لكل الشُرَكَاء، لكل الذين عُبِدوا مِن دون الله:

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ (18) ﴾

(سورة الفرقان)

أيْ ما أعظمك عن أن يُتَّخذ من دونك إله، ما أعظم شأنك يا رب، تنزَّهت عن أن يكون معك شريك، فالتسبيح في اللغة هو التنزيه والتمجيد، التنزيه عما لا يليق بالله عزَّ وجل، والتمجيد أي السَبْحُ بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، فكلمة سبحانك فيها نفيٌ وإثبات، فيها نفي كل صفةٍ لا تليق بالله عزَّ وجل، وفيها إثباتٌ لكل كمالٍ عرَّفنا الله سبحانه وتعالى من خلال كتابه الكريم، أي ذِكْرُ الله بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى تسبيح، ونفي كل صفةٍ لا تليق به تسبيح:

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ (18) ﴾

(سورة الفرقان)

أيْ يا رب تنزَّهت عن أن يكون لك شريك، هؤلاء الذين عبدونا مِن دونك نحن مفتقرون إليك:

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ (18) ﴾

(سورة الفرقان)

ليس كل عطاءٍ عطاءً ربما كان المنع عين العطاء وربما كان العطاء عَيْن المنع:

نحن الذين عُبِدْنَا من دونك لا يحق، لا يصح، ولا ينبغي أن نتخذ مِن دونك أولياء، فإذا كان هذا الذي تعبده من دون الله لا ينبغي بِحَقِّهِ أن يُعْبَد، فكيف تعبده أنت ؟ كيف تعبد جهةً لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ؟

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ (18) ﴾

(سورة الفرقان)

أيْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك متَّعتهم يا رب، متعتهم بالصحة، متعتهم بالغنى، متعتهم بطول العمر، قد تكون الدنيا استدراجاً، ليس كل عطاءٍ عطاءً ربما كان المنع عين العطاء، وربما كان العطاء عَيْنَ المنع، فإذا اختار لك الله عزَّ وجل شيئاً معيناً وأنت راضٍ بمشيئته فهذا من نعم الله الكبرى عليك، أن تكون راضياً بمشيئة الله عزَّ وجل، إذاً ربما كان المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما مَنَعَك فأعطاك.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ(18)﴾

(سورة الفرقان)

الذِكْر قال بعض المفسرين هو القرآن:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) ﴾

(سورة الحجر)

أغنى الأغنياء من أعطاه الله الرزق الكفاف وشغله بمعرفته وملأ قلبه بنوره:

أيْ أَنَّ هذا الكتابُ المنهج نسوا أن يقرؤوه، نسوا أن يفهموه، نسوا أن يتدبَّروه، نسوا أن يعملوا به، متعتهم بالمال، والصحة، والجاه، والقوة، وطول العمر، وألفوا هذه الحياة، ألفوا نعيمها، انغمسوا في شهواتها، أعجبتهم، رضوا بها، اطمأنوا لها، وضربوا عُرْضَ الطريق بوعدك ووعيدك، وذِكرك وقرآنك، ولم يقرؤوه، ولم يعووا ما فيه، هذا تعليل هؤلاء الذين عُبدوا من دون الله، يا رب نحن ما أضللناهم، سبحانك أن ندَّعي أننا معك شركاء، هذا لا يليق بنا، ولا يليق بأي جهةٍ أخرى غيرك يا رب:

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ(18)﴾

(سورة الفرقان)

فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

أيْ إذا أعطاك الله عزَّ وجل الرزق الكفاف، وشغلك بمعرفته، وملأ قلبك بنوره وعرَّفك بذاته، فأنت أغنى الأغنياء ؛ أما من أُعطي الدنيا وشغلته واستهلكته فمتى حسرته الكبرى ؟ عندما يأتيه الموت، يرى أن هذه الدنيا لا تقدِّم ولا تؤخِّر، ولا تنفع ولا تضر، ولكنها كانت عبئاً عليه، فالذكر هنا القرآن، وبعضهم قال: الذكر هو الشكر. يا رب كيف أشكرك ؟ فقال الله عزَّ وجل:

((يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

أحد أنواع الشُكر أن تذكر الله فالمؤمن حياته كلها ذكر:

لمجرد أن تنسى الله عزَّ وجل فهذا أحد أنواع الكفر، ولمجرد أن تذكره فهذا أحد أنواع الشُكر، تذكرني ولا تكفرني، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني لذلك:

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً (41) ﴾

(سورة الأحزاب)

المؤمن حياته كلها ذكر، يذكر الله في بيته، في عمله، في الطريق إلى عمله، في خَلوته، في جلوته، في حِلِّه وترحاله، في سفره وحضره، في صحته ومرضه، في غناه وفقره، في قوته وضعفه، في شبابه وشيخوخته:

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ(191) ﴾

(سورة آل عمران)

إذاً كم حالة للذكر ؟ إما أن تكون واقفاً، وإما أن تكون مضطجعاً، وإما أن تكون نائماً أو قاعداً:

﴿ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ(191) ﴾

(سورة آل عمران)

أيْ يذكرون الله في كل حال، وهذا مصداق قول الله عزَّ وجل:

﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ(23) ﴾

(سورة المعارج)

إذا خرج من بيته يدعو الله عزَّ وجل:

((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ))

[من سنن أبي داود عن أم سلمة]

إذا دخل بيته فله دعاء، وإذا أوى إلى فراشه فله دعاء، إذا خرج من بيت الخلاء فله دعاء:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، و أبقى فيّ قوته، و أذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

الشكر بابٌ كبير من أبواب الإيمان:

كذلك إذا تمتَّع الإنسان بسمعه، ببصره، بقوته، بحركاته، بأعضائه، بعقله، أو رأى إنساناً مختل العقل فعليه أن يدعو الله بالشكر والحمد والثناء:

((يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

جلست إلى المائدة تأكل من الطعام، فالله عزَّ وجل سَلَّمَ لك الأجهزة كلها، هناك من يأخذ السيروم، أما أنت فإنَّك تأكل هذا الطعام، تأكله وأنت جائع، وقد مَكَّنَكَ الله من أن تأكل، وسمح لك أن تأكل، أعطاك ثمن الأكل، دخلت إلى بيتك، رأيت أهلك في صحةٍ طيبة، أولادك أمامك، إنَّك إن ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني، وبالشكر تدوم النِعَم، والنبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم وجَّهَ بعض أصحابه فقال:

((يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه))

[رواه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي]

فالشكر بابٌ كبير من أبواب الإيمان، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الإيمان نصفان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ))

[موقوف عن الشعبي]

فالصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر، فالصوم أصبح ربع الإيمان بكامله، وإذا مُتّعَ الإنسان بالصحة، والقوة، والمال، والجمال، والأهل، والأولاد، لدرجة أنه استمرأ هذه النعم ونسي بها الله عزَّ وجل فهذه أصبحت نِقَماً وليست نِعَماً، إنها استدراج والله سبحانه وتعالى يمدُّ أحياناً للكافرين مداً:

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً (44) ﴾

(سورة الأنعام)

حجمك عند الله تعالى يوم القيامة بحجم عملك الصالح:

قال تعالى:

﴿ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) ﴾

(سورة الفرقان)

البور، الأرض البور هي الأرض التي عُطِّلَت عن الزراعة فهي لا تنتج، أرضٌ منتجة، وأرضٌ بور، والبور هو الشيء الفاسد، والبور هو الشيء الهالك، معنى الهلاك، ومعنى الفساد، ومعنى عدم الجدوى، هذه المعاني الثلاثة مأخوذة من كلمة بور:

﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا(12) ﴾

(سورة الفتح)

أيْ أنك تأخذ ولا تعطي، تستمتع ولا تُمتِّع، تتلقى ولا تُلقي:

﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا(12) ﴾

(سورة الفتح)

فأنت لك حجم عند الله عزَّ وجل يوم القيامة، حجمك بحجم عملك الصالح، ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت ؟ ماذا علَّمت ؟ ماذا أنفقت ؟ من خدمت ؟ أعطاك الله جاهاً فماذا فعلتَ به؟ استعليت به على الناس أم وظَّفته في خدمة الخلق ؟ أعطاك الله مالاً استمتعت به أم أنفقته ؟ أعطاك علماً كتمته أم نشرته ؟ أعطاك خبرةً حبستها أم بذلتها ؟ فحجمك عند الله بحجم عملك، بحجم عطائك، بحجم بذلك، لذلك فالأنبياء كانوا قمةً في العطاء، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدَّست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من هيَّأَكَ تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع فعشت واحداً بين الجميع، فالبطولة هي عندما تلقى الله عزَّ وجل، ولا يبدو لك إلا عملك الصالح وما سوى ذلك يتلاشى وكأنه لم يكن.

﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) ﴾

(سورة الفرقان)

سيدنا أبو الدرداء رضي الله عنه كان في حمص مرةً فخطب في أهلها وقال:

"هلموا إلى أخٍ لكم ناصح، وقال لهم: ما لكم لا تستحون ؟ تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، إن من كان قبلكم بنو مشيداً، وجمعوا عبيداً، وأملوا بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، ومساكنهم قبوراً."

من عبد غير الله خسر في الدنيا والآخرة:

يقول الله عزَّ وجل لهؤلاء الذين عُبدوا من دون الله، لهؤلاء الشركاء زوراً وبهتاناً:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ (19) ﴾

(سورة الفرقان)

يخاطب الآن الذين عَبَدوا من دون الله، فقد خاطب أولاً المَعْبُودين:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ (17) ﴾

(سورة الفرقان)

يا من عُبِدْتم من دون الله:

﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي (17) ﴾

(سورة الفرقان)

استفهام توبيخ، والآن جاء الخطاب لمن عَبَدوهم من دون الله:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ (19) ﴾

(سورة الفرقان)

ادَّعيْتم أنهم آلهة، هؤلاء قد كذبوكم بدعواكم، ادعيتم أنهم ينفعونكم أو يضرونكم فقد كذبوكم بدعواكم:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا (19) ﴾

(سورة الفرقان)

عدم استطاعة الإنسان أن يصرف عن نفسه العذاب يوم القيامة:

إن الإنسان في الدُنيا أحياناً بجاهه، بقوته، بحنكته، بذكائه، بخبثه، يستطيع أن يصرف عنه عذاباً، أو بليةً، أو مشكلةً، وأن يلصقها بإنسان آخر، لكنْ يوم القيامة رَبُنا سبحانه وتعالى يبيّنُ فيقول:

﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا (19) ﴾

(سورة الفرقان)

لا تستطيعون أن تصرفوا عن أنفسكم هذا العذاب، ولن تستطيعوا أن تنتصروا من الله عزَّ وجل، فهو قد تخلى عنكم لأنكم في الدنيا ما عرفتموه:

﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19) ﴾

(سورة الفرقان)

وهذه الآية من السنن الثابتة في خلقه:

﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19) ﴾

(سورة الفرقان)

وإذا قال الكبير عن عذابه بأنه كبير فما أكبره، فإذا قال لك طفل: أنا معي مبلغ كبير، يخطر في بالك أن معه خمسَ ليرات أو عشراً، أمَّا إذا قال لك إنسان معروفٌ بالغنى: أنا معي مبلغ كبير، فكلمة كبير بحسب حجم القائل، إذا قال الله عزَّ وجل وهو أصدق القائلين:

﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19) ﴾

(سورة الفرقان)

هل بإمكان الإنسان أن يتصوَّر ماذا يعني هذا العذاب الكبير ؟!!

للآية التالية معنيان:

1 ـ هي تسليةٌ لقلب النبي عليه الصلاة والسلام وتخفيف من آلامه ومتاعبه:

يقول الله عزَّ وجل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا(20)﴾

(سورة الفرقان)

يبدو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُسَلِّيَ النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يخفف عنه، لأن الدعوة لها أعباءٌ كثيرة، وأعباءٌ ثقيلة، ولولا هذه الأعباء ما ظهر مَعْدِنُ هذا النبي الكريم، ولو أنَّ الدعوةَ طريقٌ محفوفٌ بالورود والرياحين، لما كان هناك أجرٌ عظيم لمن دعا إلى الله، ولكن الدعوة، وهذه سنة الله في الخلق، محفوفةٌ بالمخاطر وبالمتاعب، لا بدَّ أن تواجه خصوماً، لا بدَّ أن تواجه حُسَّاداً، لا بدَّ أن تواجه مُغرضين، لا بدَّ أن تواجه معارضةً، ولكل داعيةٍ في رسول الله أسوةٌ حسنة، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يُسَلِّيَ النبي عليه الصلاة والسلام ويطمئنه إلى أن هذا القول الذي ووجِهْتَ به من أنك لست بنبي، بدليل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، هذا القول قيل أيضاً لكل الأنبياء من قبلك فلا تتألم، لا تحزن، لا تقلق، لا تضجر، لا تغتم، هذا القول قيل لكل مَن سبقك من الأنبياء، لأن الله عزَّ وجل قال في مطلع هذهِ السورة.

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7) ﴾

(سورة الفرقان)

فجاء الجواب:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ (20) ﴾

(سورة الفرقان)

إذاً أول معنى من معاني هذه الآية أنها تسليةٌ لقلب النبي عليه الصلاة والسلام، وطمأنة له، وإيناسٌ له، وتخفيفٌ من آلامه ومتاعبه.

2 ـ أصلٌ في طلب الرزق وكسب المال لإنفاقه على حاجات الإنسان الأساسية:

المعنى الثاني أن هذه الآية أصلٌ في طلب الرزق وكسب المال، من أجل إنفاقه على حاجات الإنسان الأساسية، لأن الإنسان في طبيعته مفتقرٌ إلى الطعام والشراب، ومفتقرٌ مرةً ثانية إلى كسب ثمن الطعام والشراب، أنت مفتقرٌ إلى الطعام، ومفتقرٌ إلى العمل، إذاً حقك في أن تأكل حقٌ مقدَّس، وحقك في أن تعمل حقٌ مقدس، لذلك إذا افتقر الإنسان ولم يجد له طعاماً فله حقٌ في بيت مال المسلمين، لأن هذه حاجة أساسية، لا يمكن أن تقفَ على قدميك من دون طعامٍ وشراب، وربما كان شهر الصيام لَفْتَ نظرٍ لطيفٍ إلينا لإشعارنا بضعفنا وعبوديتنا وحاجتنا إلى الطعام والشراب، فهذه سنة الله في الخلق:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ(20)﴾

(سورة الفرقان)

يأكلون الطعام، افتقار إلى الطعام والشراب، ويمشون في الأسواق، افتقار إلى كسب ثمن الطعام والشراب، شيء آخر ؛ لذلك أحلَّ الله البيع وحرَّم الربا، أحلَّ التجارة، وتسعة أعشار الرزق في التجارة:

((إن أطيب الكسب كسب التجار ؛ الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا))

[الجامع الصغير عن معاذ بسند ضعيف]

مكانة التجار في الإسلام:

سبعُ صفات من صفات التُجَّار الصادقين المؤمنين، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام ليقول:

((التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ))

[من سنن الترمذي عن أبي سعيد]

لماذا ؟ وهو لم يجاهد، ولم يقاتل، ولم يدعُ إلى الله، ولم يعلِّم، ولكنه أظهر للناس الإسلام بعمله، دعا إلى الله بعمله، والدعوة إلى الله بالعمل أبلغ بكثير من الدعوة إليه بالقَول، لأن الناس يتعلَّمون بعيونهم كما يتعلمون بآذانهم، ولأن لغة العمل أبلغ من لغة القول، فربنا سبحانه وتعالى جعل هذه الآية أصلاً في أن

التجارة، والصناعة، والزراعة، والحِرَف، والمِهَن، والخدمات، والمهن الفكرية كلها معايش، أي وسائل لكسب الرزق، وهي مشروعة.

النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى شابَّاً يصلي في المسجد سأله:

((مَن يطعمك ؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك))

[ورد في الأثر]

الحياة عمل، والشيء المعروف عن سيدنا عمر لما رأى إنساناً يقرأ القرآن في المسجد قال:

" إنما أنزل هذا القرآن ليُعْمَلَ به أفتخذت قراءته عملاً ؟!"

الصحابة الكرام كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما أمسك يد سيدنا عبد الله بن مسعود رآها خشنة مِن أثر العمل، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

وربنا عزَّ وجل قال:

﴿ وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ(105) ﴾

(سورة التوبة)

من يدّعي أن على الإنسان ألا يعمل هو إنسان ضلّ عن الطريق الصحيح:

إذاً هذه الآية:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (20) ﴾

(سورة الفرقان)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي))

[صحيح البخاري عن ابن عمر]

ويقول الله عزَّ وجل:

﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالا طَيِّبًا(69) ﴾

(سورة الأنفال)

بعضهم يعتذر عن السعي لكسب الرزق متذرّعاً بحال أصحاب الصفَّة، أصحاب الصفَّة فئةٌ من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا فقراء، وكانوا يجلسون في زاوية المسجد، وسُمِّيَت الزاوية حتى الآن

الصفَّة، بعد مقام النبي عليه الصلاة والسَّلام، بعد أن يزار النبي ويتجه الزائر إلى جهة الجنوب، ويتجه نحو الغرب، هناك منصة مرتفعة في الحرم النبوي هذه اسمها الصُفَّة، كان أصحاب النبي عليهم رضوان الله الفقراء يقبعون بها، وكان النبي إذا جاءته الصدقة بعث بها إليهم، وإذا جاءته الهدية أكلها معهم، لكنهم كانوا يعملون، كانوا يؤدُّون خدماتٍ للمسجد، كما جاء في صحيح البخاري، كانوا يسوقون الماء للمسجد النبوي الشريف، وكان يحتطبون له، أي يقدِّمون أكثر الحاجات لهذا المسجد، فهذا أيضاً عمل، فهذا الذي يدّعي أن الإنسان عليه أن يقبع في بيته ولا يعمل، هذا إنسان ضل عن الطريق الصحيح ضلالاً بعيداً.

الله عزَّ وجل طالبنا بالأسباب لأنها سنة الله وسنة رسوله:

قال بعض المفسرين: " الأسباب والوسائط ؛ الأسباب كسب الرزق، من خلال الصناعة، والتجارة، والزراعة، والعمل اليدوي، والمهن، والحرف، والخدمات العالية، فقد قيل:

" الأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذي انعقد عليه إجماع المسلمين ".

فهذا الذي له عمل يجب أن يفتخر، بل إن سيدنا عمر رضي الله عنه يقول:

" إني أرى الرجل لا عمل له فيسقط من عيني ".

هناك من يستنبط أن الله عزَّ وجل طالبنا بالأسباب، فربنا سبحانه وتعالى كان بقدرته أن يجعل البحر طريقاً يبساً، فماذا قال لسيدنا موسى ؟ قال:

﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ(63) ﴾

(سورة الشعراء)

وفي آية أخرى:

﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ(60) ﴾

(سورة البقرة)

إذاً يجب أن تأخذ أنت بالأسباب، والسيدة مريم، كان الله عزَّ وجل في قدرته أن يسقط عليها التمر لكن قال:

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ(25) ﴾

(سورة مريم)

إذاً لا بدَّ من السبب، لا بدَّ من التحرُّك، وعندئذٍ ربنا سبحانه يقدِّم لك كل شيء.

الله سبحانه وتعالى ينزّل علينا أسباب الرزق وهو المطر ونحن علينا أن نعمل:

ربنا عزَّ وجل قال:

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22) ﴾

(سورة الذاريات)

بعض المسلمين يفهمون هذه الآية فهماً خاطئاً، يقول: على الله الرزق، معنى كلمة الرزق في هذه الآية تعني المطر فقط، يعتقدون أن الأمطار وحدها تكفي ؟ ألا تحتاج إلى زرع البذور ؟ إلى غرس الأشجار ؟ إلى تسميد التربة ؟ إلى حرث التربة ؟ إلى قطف الثمار ؟ إلى معالجة الآفات التي تعيب الأشجار ؟ فمن يدَّعي أن الرزق على الله عزَّ وجل أخذاً من هذه الآية:

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22) ﴾

(سورة الذاريات)

هذا فهمٌ مغلوط، معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى ينزّل عليكم أسباب الرزق وهو المطر، وأنتم عليكم أن تعملوا.

أدلة من الكتاب والسُّنة على ضرورة العمل وطلب الرزق:

الدليل:

﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ رِزْقًا(13) ﴾

(سورة غافر)

وقال:

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا(48) ﴾

(سورة الفرقان)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اطلبوا الرزق في خبايا الأرض))

[رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي بسند ضعيف عن عائشة]

هناك إشارات:

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى(6) ﴾

(سورة طه)

أيْ أَنَّ الله عزَّ وجل أودع في الأرض طاقات مذهلة، طاقات كامنة، أودع فيها ثروات لا يعلمها إلا الله، فكلَّما تقدَّم العلم اكتُشِفَ شيءٌ جديد ما كان في الحُسبان، الله عزَّ وجل على كل شيءٍ قدير. نبقى في إطار هذه الآية يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

فهمٌ سقيمٌ خاطئ حينما يَفْهَمُ المسلم أن الحياة بالتوكُّل:

العمل شرف، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ - الطير كيف ترزق، هل تبقى في أعشاشها ؟ قال - تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[سنن ابن ماجة عن عمر]

إذاً هي في غدو، في رواح، وفي حركة، ولا بد من سعيٍ، ولا بد من طَلَب، وكذلك الأخذ بالأسباب، إذاً فهمٌ سقيمٌ خاطئ حينما يَفْهَمُ المسلم أن الحياة بالتوكُّل، والحياة بالاستلقاء، والحياة بالتلقِّي، لا إن الحياةَ بالعمل، وحجمُك عند الله بحجم عملك، والآيات، والأحاديث، والسيَرُ، وآثار أصحاب رسول الله والتابعين والعلماء الأجلاَّء كلها تؤكِّد أن العمل شرف.

أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فمرة قال لهم سيدنا عمر: **" كذبتم، المتوكل مَن ألقى حَبَّةً في الأرض ثم توكَّل على الله ".**

حتى إنَّه قد نزل فيهم قرآن، وقد نزل فيهم قوله تعالى:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى(197) ﴾

(سورة البقرة)

إذا ذهبت إلى الحج فتزوَّد، أما أنْ تكون عالةً على الناس، وأن تأكل من طعام الناس، ومِن فتات الناس، فهذا لا يليق بالمسلم.

التوكُّل محله القلب والعمل مكانه الجوارح:

هذه الآية:

﴿ وَتَزَوَّدُوا(197) ﴾

(سورة البقرة)

يؤخذ منها أحكامٌ كثيرة، فالتوكُّل معناه أن تأخذ بالأسباب لا أن تأخذ جُهْدَ غيرك ولا أن تكون عالةً على غيرك، عندنا شيء مهم جداً، التوكُّل محله القلب، والعمل مكانه الجوارح، فالمسلمون في أيام تأخُّرِهِم وضعفهم عكسوا الآية، فأصبح توكلهم في الجوارح، وكسبهم في القلب، غلط، التوكل مكانه القلب هو استسلام لله، رضا بحكم الله، بقضائه، لكن الجوارح عليها أن تعمل، الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، سأله أحدهم:

" أريد أن أحج على قدم التوكُّل "، فقال: " أخرج وحدك "، قال: " لا، أريد أن أكون مع الناس "، قال: " إذاً أنت متكلٌ على أجربتهم ".

أي على طعامهم وشرابهم، إذا كنت تريد أن تخرج مع الناس فأنت متوكلٌ على أجربتهم لا على الله عزَّ وجل، لو أنك توكَّلت على الله لسعيت في كسب الرزق، ولأخذت معك زاداً إلى الحج، إذاً كل هذه المعاني مستنبطة من أن هذه الآية أصلٌ في كسب الرزق وطلبه.

الأسواق هي أبغض البلاد إلى الله لأنها تشعر الفقير بحرمانه:

شيءٌ آخر، يقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

يا ترى ما السبب ؟ لأن السوق فيها بضاعة، بضاعة مُزَيَّنَة، معروضة عرضاً شيّقاً، يمر الفقير ويمر الغني، فقد يمر الفقير وليس في إمكانه أن يشتري هذه البضاعة، يشعر بالحِرمان، يشعر أن الله قد حَرَمَهُ الدنيا، فعرضُ البضائع وتزيينها، وإغراء الناس بشرائها، وبيان ميّزاتها، فهل كل إنسان يملك ثمن هذه البضاعة ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وشرها أسواقها))

وهناك شيء آخر، الأسواق تحبب بالدنيا، يروى أن امرأة دخلت مكاناً للبيع فخماً جداً، فقالت: " يا إلهي، طبعاً، ما أكثر الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان ".

كلها أشياء كمالية، الأساسية موجودة، معظم الناس الأشياء الأساسية موجودة ؛ من طعامٍ وشرابٍ ومأوى ولباس، ولكن التسابق، والتنافس، والتناحر، ودفع الدين مُقابل الدنيا، والكذب، والنفاق، والتملق، والكفر، والإلحاد من أجل الرفاهية لا من أجل متاعٍ أساسي، أليس الله بكافٍ عبده ؟

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[من سنن الترمذي عن سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ]

فالأساسيات موجودة، ولكن التنافس البغيض، وبيع الدنيا بالدين من أجل الرفاهية والكماليَّات، إذاً أولاً: السلعُ تحبِّب الناس بالدنيا وقد تصرفهم عن الآخرة، وقد يعظِّم الإنسان صانعي هذه السِلَع، فيراهم أناساً متفوّقين، فإذا عظمهم مَن هَوِيَ الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، أو أنها تكون أغلى من دخل الإنسان فيشعر بالحِرمان، أو أن هناك اختلاطاً بالنساء، فهذا يؤدِّي إلى الفسوق والفجور، فالنبي هكذا قال:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

هذا فضلاً عن بيوعٍ فاسدة، وأيمانٍ باطلة، وانحرافات سلوكية، ونظرٍ للحرام ؛ هذا كله في الأسواق.

الله عز وجل جعل بعض الناس لبعضهم فتنة:

لذلك الإنسان إذا جاء للمسجد وشعر بسرور وراحة، فهذه علامة طيبة، والمؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالعصفور في القفص، دائماً متضايق:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا(20)﴾

(سورة الفرقان)

هذه آية دقيقة جداً، الله سبحانه وتعالى جَعَلَ الفقير فتنةً للغني، أيحتقره ؟ أيحرِمُهُ ؟ فُتِنَ الغني، وجعل الغني فتنةً للفقير، أيعظِّمَهُ من دون الله ؟ أيتضعضع أمامه ؟ أيأخذ منه ما ليس له ؟ أيحسده ؟ فالغني فتنةٌ للفقير، والفقير فتنةٌ للغني، وجعل القوي فتنةٌ للضعيف، أيستكين هذا الضعيف ؟ أتنهار معنويَّاته ؟ أيحسده ؟ وجعل الضعيف فتنةٌ للقوي أيستطيل عليه ؟ أيبغي عليه ؟ أيحتقِرُهُ ؟ وجعل الصحيح فتنةٌ للمريض، وجعل المريض فتنةٌ للصحيح، وجعل العاجز فتنةٌ للسليم، وجعل السليم فتنةٌ للعاجز، هذا معنى قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (20) ﴾

(سورة الفرقان)

الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء و في الآخرة توزيع جزاء:

وعلى مستوى النساء جعل التي تفوَّقت في جمالها فتنةً للتي تَدَنَّىَ مستوى جمالها، فالمؤمنة إذا عرفت ربها واستقامت على أمره فهي عنده غاليةٌ جداً، وربما أسعدها في الدنيا والآخرة، أتندب حظَّها ؟ أتنسى نعمة ربِّها عليها ؟ أتغمط نعمة الإيمان ؟ نعمة الهدى ؟ وقد جعل الله سبحانه وتعالى الأُخرى فتنةً

للأولى، أتستعلي عليها ؟ أتباهيها بجمالها ؟ فهذه الحظوظ الموزعة على ذويها في الدنيا وزّعت توزيع ابتلاء، وسوف توزَّع في الآخرة توزيع جزاء:

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20) ﴾

(سورة الفرقان)

تلتفت أحياناً إلى ذاتك، فترى أن اللهَ جَعَلَكَ صحيح البدن، وترى إنساناً آخر مُبتلى بأمراض كثيرة، أتقول: أنا متعني بصحتي ؟ لا. قل: يا ربي لك الحمد أنت أكرمتني بهذه الصحة، وأرجو الله أن يشفي فلاناً، هذا على مستوى المال، على مستوى الصحة، على مستوى القوة، على مستوى الجاه، أنت عندك بيت تملكه، وفلان ليس له بيت يملكه، فتقول له موبخاً: ألا تشتري بيتاً ماذا جرى لك ؟ فهل شراء البيت بيده ؟ هذا كلام فيه كِبْر، كلام فيه عجرفة، فالله عزَّ وجل أكرمك ببيت، والآخر لا يملك بيتاً، أحياناً بعض الناس يؤتيهم اللهُ أشياء بالدنيا فينسَوْا أنه فضلٌ مِن الله، يظن أنه بذكائه، وحنكته، يستعلي بها على الآخرين، فالغني مفتون بالفقير، والفقير مفتون بالغني، والضعيف مفتون بالقوي، والقوي مفتون بالضعيف، والصحيح مفتون بالعليل، والعليل مفتون بالصحيح، والكبير بالصغير، والصغير بالكبير، وصاحب الحسب والنَسَب مفتون بمن ضعف حسبه ونسبه.

الإنسان دائماً ممتحن وعلامة معرفتك بالله صبرك على حكمه:

إن الإنسان إذا نجَّاهُ الله عزَّ وجل مِنَ الفتنة فعليه أن يحبس نفسه عن كل ما يفتُنهُ، فالغني يحبس نفسه عن البطر والفقير عن الضَجَر، الغني يجب أن يحبس نفسه عن البطر، والفقير يجب أن يحبس نفسه عن الضجر، والفتنة في أدق تعاريفها:

" أن يحسد المبتلى المعافى، وأن يحقر المعافى المبتلى ".

واللهِ أنت دائماً ممتحن، أصابك شيء مزعج ممتحن، لم تصبر، لم تتجمل، لم ترض، أصابتك نعمة فأنت ممتحن، لم تشكر، لم تتواضع، لم تخضع لله عزَّ وجل، فأنت على الحالتين ممتحن، في العطاء والمنع، في القوة والضعف، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في إقبال الدنيا وفي إدبارها.

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (20) ﴾

(سورة الفرقان)

أتصبرون على حكم الله، لا يصبر إلا من عرف الله عزَّ وجل، فعلامة معرفتك بالله صبرك على حكمه، لذلك قال سيدنا علي:

" الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".

قال تعالى:

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20) ﴾

(سورة الفرقان)

كلما عرفت الله تواضعتَ له ورأيت فضله:

تكلم ما شئت، لكن الله هو البصير يعلم السر وأخفى، فشعورك الداخلي، إعجابك بنفسك، تواضعك لله، اعتزازك بذاتك، استكبارك، كله عند الله معلوم ومكشوف، لذلك جاء في بعض الأحاديث الشريفة: ويلٌ للعالم من الجاهل.

العالم ويلٌ له من الجاهل، يحتقره ؟ فهو أجهل منه، لا يعلمه، فقد عبر عن بخله بأن كتم العلم، ويلٌ للعالم من الجاهل وويلٌ للجاهل من العالم، لا يتعلم منه، يستكبر عليه، يعرض عنه، ويلٌ للمالك من المملوك، ويل للمملوك من المالك، ويلٌ للسلطان من الرعية، ويلٌ للرعية من السلطان، حديث طويل، فكما قال الله عزَّ وجل:

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (20) ﴾

(سورة الفرقان)

ويلٌ للضعيف من القوي، والقوي من الضعيف، فأنت ممتحن في كل الأحوال، في إقبال الدنيا وفي إدبارها انتبه:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2) ﴾

(سورة العنكبوت)

فكلما عرفت الله تواضعتَ، وكلما عرفت الله رأيت الفضل، وكلما عرفت الله عزوت الفضل لأهل الفضل.